ملخص

يرمي هذا البحث إلى دراسة ما للمكان من دلالات في شعر أحد أهم الشعراء الموريتانيين هو الشاعر سيدي عبد الله بن أحمد دام، الذي ارتبط بالمكان ارتباطا شديدا حبا وبغضا، فلاشك أن المكان يمثّل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب، غير أن المكان لم يعد مجرد خلفية للعمل الأدبي أو الفني، بل أضحى عنصرا شكليا وتشكيليا من عناصر النص الأدبي شعريا كان أم نثريا، بل ومن العمل الفني عموما، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكلان بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبي.

ولقد اعتمدنا في هذا البحث المنهج النفسي القائم على أن الإنتاج الأدبي هو انعكاس لشخصية الأديب وما يعتمل في نفسه من مشاعر. هذا مع الإفادة من المناهج الأخرى كلما كان ذلك مفيدا.

واتبعت في البحث تقسيمه إلى :

المبحث الأول: الدلالات النفسية والاجتماعية للمكان في شعر ابن أحمد دام

نرمي في هذا المبحث إلى تناول شعر ابن أحمد دام منظورا إليه من زاوية نفسية واجتماعية،

أما المبحث الثاني فننصرف فيه إلى تبيان الجوانب النفسية والاجتماعية التي عكسها شعر الرجل في تفاعله مع ظروف حياته المضطربة.

المطلب الأول: في السياق الاجتماعي والثقافي .

Abstract

This research aims to study the place of the meanings in the poetry of one of the most important Mauritanian poets is the poet Sidi Abdullah bin Ahmed Dam, who was associated with the place strongly linked to love and hatred, Flckk that the place is a central axis of the axes revolve around the theory of literature, but the place did not It is merely a background to literary or artistic work. It has become a formative and formal component of the literary text, whether it is poetry or natria, or of artistic work in general, and the interaction and contrast of spatial elements constitute an aesthetic dimension of the literary text.

We have adopted in this research the psychological approach based on the fact that literary production is a reflection of the personality of the writer and his feelings. This, while benefiting from other approaches, is useful.

And followed the search divided into:

The first topic: psychological and social implications of the place in the poetry of Ibn Ahmed Dam

In this subject, we aim to address the poetry of Ibn Ahmad Dam from a psychological and social perspective,

As for the second topic, we will turn to the psychological and social aspects reflected in the man's hair in his interaction with the circumstances of his troubled life.

The first requirement: in the social and cultural context.

مقدمة:

يرمي هذا البحث إلى دراسة ما للمكان من دلالات في شعر أحد أهم الشعراء الموريتانيين هو الشاعر سيدي عبد الله بن أحمد دام، الذي ارتبط بالمكان ارتباطا شديدا حبا وبغضا، حنينا وتبرّما. ومما جعل للمكان هذا الحضور في شعر الرجل، أنه ما فتئ يضرب في الأرض متنقّلا بين موطنه وبلاد الاغتراب الكثيرة التي شملت مناطق واسعة من إفريقيا السوداء. وربما كان من أسباب هذا الحضور الملحوظ للمكان لدى شاعرنا أنه تزوج وأنجب في بلاد الغربة، ولذلك عاش ممزقا بين وطنه ومغتربه، فلم يكن يستقر في أحدهما إلا ونازعته نفسه إلى الآخر، فهنا زوجه وأبناؤه وأسباب رزقه، وهناك أهله وخِلاّنه و مرابع صباه.

وليس شاعرنا في ذلك بدعا من الشعراء، إذ للمكان أهمية كبيرة في حياة الإنسان عامة، حيث سبق وجودُه وجودَه، فقد خلق الله تعالى له الأرض، وله هيّأها بل وهيّأ له الكون كلّه باعتباره بيتَه الكبير. وعلى أديم الأرض وفي كنف الكون، أدرك الإنسان ـ أول ما أدرك ـ الزمان والمكان، بيد أنّ إدراكه للمكان كان أسرع وأسهل إذ هو محسوس وملموس عكس الزمان، فإدراك المكان إدراك مباشر خلافا للزمان.

وقد تعرّض كثير من العلماء والباحثين[١] لتعريف المكان، فتنوّعت زوايا النظر وتعددت التعريفات تبعا لذلك. ولن نشغل أنفسنا باستطراد تعريفات المكان لغويا كما أوردها أصحاب المعاجم، وإنما نقتصر على ما ذكره صاحب كتاب "التّعريفات" من العرب، وما ذكره "باشلار" Bachlard من الغربيّين لاعتقادنا أن النفَس الفلسفيّ والكلاميّ لديهما هو الأكثر قدرة على تعريف المفاهيم الشائكة مثل هذا المفهوم.

فأما صاحب "التّعريفات" فيتناول تعريف المكان من وجهة نظر الحكماء (الفلاسفة) والمتكلمين كما تعرّض للمكان المبهم والمعيّن فقال: "المكان: عند الحكماء، هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماسّ للسطح الظاهر من الجسم المحَويّ، وعند المتكلمين: هو الفراغ المتوهَّم الذي يشغله الجسم وتنفُذ فيه أبعاده. المكان المبهم: عبارة عن مكان له اسم نسمّيه به، بسبب أمر داخل في مسمّاه، كالخلف، فإن تسمية ذلك المكان بالخلف إنما هو بسبب كون الخلف في جهة، وهو غير داخل في مسماه. المكان المعيّن: عبارة عن مكان له اسم سمّيَ به، بسبب أمر داخل في مسمّاه، كالدار؛ فإن تسميته بها بسبب الحائط والسقف وغيرهما، وكلُّها داخلة في مسمّاه.[٢]

---

[١] ـ كابن منظور في **اللسان**، ومرتضى الزبيدي في **التاج**، وابن دريد في **الجمهرة**، مثالا لا حصرا. فليرجع إليه للتوسع لمن شاء.

[٢] ـ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، **كتاب التعريفات**، تحقيق وضبط

وأما "باشلار" فينظر إلى المكان من زاوية الاختلاف في إدراك الإنسان للزمان وإدراكه للمكان، فـ "إدراك الإنسان للزمن إدراك غير مباشر، فهو يتحقق من خلال فعل الإنسان وعلاقته بالأشياء، في حين أن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي مباشر، وهو يستمر مع الإنسان طوال سني عمره، مما يؤكد حميمية العلاقة التي تربط الإنسان بالمكان ومباشرتها وملازمتها لحركة الإنسان".[٣]

ولاشك أن المكان يمثّل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب، غير أن المكان لم يعد مجرد خلفية للعمل الأدبي أو الفني، بل أضحى عنصرا شكليا وتشكيليا من عناصر النص الأدبي شعريا كان أم نثريا، بل ومن العمل الفني عموما، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكلان بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبي.

لذلك انعقد إجماع الباحثين على محورية المكان في العمل الأدبي، وبينوا ما له من دلالات ومن "عميق الأثر في الحياة البشرية، إذ ما من حركة إلا وهي مقترنة به، وما من فعل إلا وهو مستوحٍ لبعض دوافعه منه، وهو أعمق وأكبر وأهم من أن ينحصر في ما يمثله من ظرف ووعاء، وأن يُقْتَصَر فيه على البيّن الناتئ من مستوياته، لأن كل مناحي الحياة ومستوياتها وقطاعاتها، بل وكل مناحي النفس أيضا تشهد على حضوره الكثيف، وتعدد مظاهره، وتفصح عن أثره، وتدفع إلى الإقرار بأنه جزء لا يتجزأ من كل الموجودات (.....) وهو مصبّها ومنطلقها، وهو ترجمتها أيضا"[٤].

وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ –١٩٨٣، ص.٢٧٧.

(٣) ـ غاستون باشلار، **جماليات المكان**، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص.٤٢.

(٤) ـ نقلا عن: بدر نايف الرشيدي، **صورة المكان في شعر أحمد السقاف**، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١١ـ٢٠١٢، ص. ٤٢.

دوافع الاختيار:

لم يكن اهتمامي بشعر سيدي عبد الله بن أحمد دام وليد هذا البحث، بل إنه يعود إلى عشرات السنين إذ تربيت في وسط كان فيه شعر الرجل رائجا، وكنا ونحن أطفال نترنم به في أسمارنا ومطارحاتنا. وهكذا نشأت على حب شعر الرجل وحفظت جله، فلما أتيحت لي فرصة الكتابة عنه كان الحنين في شعره موضوع بحث نشر منذ سنوات في مجلة العلوم العربية والإنسانية بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية. ويمكن إجمال دوافع الاختيار في النقاط التالية:

١ ـ حبي لشعر الرجل ومعايشتي له لفترة طويلة الأمر الذي أرسى بيني وبين هذا الشعر وشائج قوية جعلته دائم الحضور في الذهن، شديد الصلة بالوجدان.

٢ ـ تجربته المتفردة بين الشعراء الشناقطة حيث تميز بنغمة الحنين التي رافقته في حياته المضطربة متنقلا بين مكانين: وطنه موريتانيا حيث أهله وأحباؤه وبلاد إفريقيا حيث زوجه وأبناؤه ، فغذا حنينه مزدوجا: فلا يستقر في أحد المكانين إلا ودعاه الشوق والحنين إلى الثاني. وله في ذلك قصائد سنعرض لها في ثنايا هذا البحث بحول الله.

٣ ـ قلة البحوث والدراسات التي تناولت شعره بالدراسة والتحقيق، وأقل منها تلك التي تناولت الجوانب الفنية والظواهر الأدبية والخصائص الإبداعية، وهو ما سيظهر جليا عند حديثنا عن الدراسات السابقة.

٤ ـ الرغبة في تقديم الرجل لقراء العربية ومتذوقي الأدب من خلال البعد المكاني ودلالاته وما يكمن خلفه من مظاهر إبداعية، وهو بعد لم يتم تناوله قبل هذا البحث.

الدراسات السابقة:

لم يحظ شاعرنا ببحوث كثيرة تتناول جوانب شعره بالدراسة والتحقيق، ومع ذلك يمكن أن نذكر أعمالا ثلاثة تناولت شعره على اختلاف في طبيعتها ومراميها:

١ ـ كتاب "**الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**" لمؤلفه أحمد بن الأمين الشنقيطي نزيل القاهرة (ت ١٩١١)[٥]. والكتاب جمْعٌ لشعر مجموعة من الشعراء الشناقطة، أملاه المؤلف من حافظته مستقَرَّهُ في مصر وطبعه بمؤازرة السيد أمين الخانجي.[٦] ولئن كان المؤلف بذل جهدا طيبا في التعريف بالشعر الشنقيطي في المشرق العربي من خلال هذا الكتاب، وتعرض فيه لشعر طائفة كبيرة من الشعراء الشناقطة، فإن هدفه الأول والأخير كان حفظ هذا التراث الأدبي من عاديات الزمن ليس إلا. وعلى كل حال فقد ترجم المؤلف ـ ضمن من ترجم لهم ـ لشاعرنا وأورد جل إنتاجه الشعري.

---

[٥] ـ ابن الأمين، أحمد، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مكتبة الخانجي في القاهرة ومكتبة منير في موريتانيا، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٦، ص.١٣.

[٦] صاحب مكتبة الخانجي الشهيرة في القاهرة، راجع: **الوسيط**، مرجع سابق، ص.١٦.

٢ ـ كتاب "**الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري**" لمؤلفه د. أحمد جمال بن الحسن، وهو عبارة عن دراسة أسلوبية لشعر ثلاثة عشر شاعرا شنقيطيا من ضمنهم شاعرنا سيدي عبد الله بن أحمد دام. ونظرا لأن الدراسة تناولت عددا لابأس به من الشعراء، فقد ضاق الحيز المخصص لكل شاعر، واقتصرت الدراسة على نماذج قليلة.

٣ ـ **تحقيق ودراسة شعر سيدي عبد الله بن أحمد دام**، وهو عبارة عن مذكرة تخرج من مدرسة المعلمين العليا في نواكشوط سنة ١٩٨٦، جمع فيها الأستاذ محمد رضوان الله وحقق ما استطاع الوصول إليه من إنتاجه الشعري.

٣ ـ بحث "**الحنين في الشعر الشنقيطي ـ ابن أحمد دام نموذجا**" للباحث د. الشيخ أحمد المنى، والمنشور بمجلة العلوم العربية والإنسانية بجامعة القصيم سنة ٢٠١٦، وتناول ظاهرة الحنين ومميزاته في شعر الرجل، وهي أول محاولة لدراسة الظواهر الأدبية في شعره.

هذا كل ما نمى إلى علمنا من دراسات سابقة تعرضت لشعر ابن أحمد دام من قريب أو من بعيد، ومن الواضح أنها قليلة جدا مقارنة بمكانة الشاعر وغزارة وجودة إنتاجه. ومع ذلك فإنها أفادت كل من يتصدى لدراسة شعر الرجل، إذ قدمت له على الأقل مدونة شملت أغلب نصوصه، وهو ما يشكل مادة أولية يمكن للباحث الاعتماد عليها للمضي قدما في تقديم هذا الشعر بظواهره ومميزاته للجمهور الواسع.

المنهج المتبع:

لقد اعتمدنا في هذا البحث المنهج النفسي القائم على أن الإنتاج الأدبي هو انعكاس لشخصية الأديب وما يعتمل في نفسه من مشاعر. هذا مع الإفادة من المناهج الأخرى كلما كان ذلك مفيدا.

خطة البحث:

سيتم نتناول هذا الموضوع في مبحثين يتضمن كل واحد منهما مطلبين، نتعرض في **المبحث الأول** إلى **الدلالات النفسية والاجتماعية للمكان في شعر ابن أحمد دام** حيث نتعرض في **المطلب الأول** للسياق الاجتماعي والثقافي الذي نشأ فيه وفي **المطلب الثاني** للدلالات النفسية والاجتماعية للمكان في شعر ابن أحمد دام. أما **المبحث الثاني** فقد محضناه لظلال المكان في شعر ابن أحمد دام حيث تناولنا في **المطلب الأول** وعنوانه: **المكان رمزا للقيم الإيجابية**، ما يتعلق بالمكان من حنين وعشق وتعلق وانتماء. هذا في حين درسنا في **المطلب الثاني** وعنوانه: **المكان رمزا للقيم السلبية**، ما يتعلق بالمكان من هجاء وذمّ وتبرّم وبغض وتوق إلى الانعتاق. وقد حاولنا في **الخاتمة** التي عقدناها في ختام البحث استعراض ما توصلنا إليه من نتائج.

المبحث الأول: الدلالات النفسية والاجتماعية للمكان في شعر ابن أحمد دام

نرمي في هذا المبحث إلى تناول شعر ابن أحمد دام منظورا إليه من زاوية نفسية واجتماعية، بغية استكناه ما فيه من دلالات

وإشارات لا يخلو منها العمل الأدبي الجدير بهذا الاسم. وقد رأينا أن نقسم هذا المبحث إلى مطلبين، نخصص أولهما لما نسميه السياق الاجتماعي والثقافي الذي عاش فيه شاعرنا، فنعرض لنبذة البيئة الجغرافية والثقافية التي عاش فيها، على أن نختم بنبذة عن حياته وثقافته ومميزات شعره.

أما المبحث الثاني فننصرف فيه إلى تبيان الجوانب النفسية والاجتماعية التي عكسها شعر الرجل في تفاعله مع ظروف حياته المضطربة.

المطلب الأول: في السياق الاجتماعي والثقافي:

نتعرض في هذا المطلب لمولد ابن أحمد دام ونشأته وثقافته، كما نلمح إلى مكانته الشعرية ومميزات شعره، وبكلمة واحدة نحاول تقديما موجزا للسياق الذي عاش فيه شاعرنا وتفاعل معه طيلة حياته.

المولد والنشأة:

ولد سيدي عبد الله بن أحمد دام الحسني حوالي[٧] ١١٧٠هـ /١٧٥٦م في منطقة "العقل" التي تتميز بآبارها القصيرة[٨] والواقعة في الجنوب الغربي من موريتانيا الحالية. ونشأ في بيت يتعاطى أهله ومحيطهم العلوم السائدة في عصرهم وأهمها: القرآن واللغة والأدب والنحو والفقه مع بعض المتمات كالمنطق مثلا. ولكن الدرس اللغوي وعماده دواوين الستة الجاهليين بشرح الأعلم الشنتمري[٩] وديوان غيلان ذي الرمة[١٠]،

---

[٧] . لم تساعد طبيعة الحياة البدوية وسمتها الترحال الدائم على حفظ تواريخ الميلاد والوفيات بشكل دقيق في بلاد شنقيط في ذلك العصر.

[٨] . **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مرجع سابق، ص.٤٦٥.

[٩] . يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي، أبو الحجاج المعروف بالأعلم (٤١٠ – ٤٧٦ هـ = ١٠١٩ – ١٠٨٤ م)، عالم بالأدب واللغة. ولد في شنتمري الغرب (Santa Maria Algarve) ورحل إلى قرطبة. وكف بصره في آخر عمره ومات في إشبيلية. كان مشقوق الشفة العليا، فاشتهر بالأعلم. من كتبه "**شرح الشعراء الستة**" و "**شرح ديوان زهير بن أبي سلمى**" و " **شرح ديوان طرفة بن العبد**" و " **شرح ديوان علقمة الفحل**" و " **تحصيل عين الذهب**" في شرح شواهد سيبويه، و "**شرح ديوان الحماسة**" في مجلدين كتبا سنة ٥١٣ – ٥١٤ من مخطوطات الخزانة الأحمدية بتونس، و" **النكت على كتاب سيبويه**" متقن، في الرباط

طغى[١١] على ما سواه من الدروس خاصة في القرن الثالث عشر الهجري وفي الجنوب الغربي من موريتانيا الحيزين الزماني والمكاني لشاعرنا.

وقد قاده طلب العلم إلى الالتحاق بمحظرة[١٢] العلامة المختار ولد بونه الجكني[١٣] التي كانت للدراسات اللغوية والأدبية فيها مكانة خاصة، وانتمى إلى الطريقة الصوفية القادرية التي أخذها عن الشيخ سيديا بن الهيبه[١٤]الذي كانت حضرته من أكبر الحضرات الصوفية[١٥] وأكثرها تأثيرا آنئذ. وبعد أن تخرج على ولد بونه علميا ورباها صوفيا رحل إلى بلاد إفريقيا للاكتساب فأكثر الحنين إلى بلاده وشوقه إلى أهله وخلانه: "حتى كان الحنين

(١٤٢ أوقاف) لعله غير كتابه " **تحصيل عين الذهب**" في شرح شواهد سيبويه. ينظر: **الأعلام للزركلي** (٨/ ٢٣٣).

[١٠] . ذو الرُمَّة ٧٧ ـ ١١٧ هـ / ٦٩٦ – ٧٣٥ م، غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر .من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة .كان شديد القصر دميماً، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء على الأطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين وكان مقيماً بالبادية، يختلف إلى اليمامة والبصرة كثيراً، امتاز بإجادة التشبيه . قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته **(ما بال عينيك منها الماء ينسكب)** لكان أشعر الناس .عشق (ميّة) المنقرية واشتهر بها .توفي بأصبهان، وقيل: بالبادية. ينظر: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، **الشعر والشعراء**، دار الحديث، القاهرة.

[١١] . أحمد جمال ولد الحسن، **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، مساهمة في وصف الأساليب**، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس الغرب، ١٩٩٥ ، ص.١١٨.

[١٢] . جمعها محاضر أو محاظر وهي مؤسسات تعليمية أهلية تتدرج من المستوى الابتدائي إلى المستوى الجامعي، وهي التي حفظت لبلاد شنقيط (موريتانيا) تراثها اللغوي والأدبي علاوة على حفظ العلوم الشرعية، ومن هنا أعلن عليها الفرنسيون حربا لا هوادة فيها طيلة احتلالهم للبلاد. حول "المحظرة" راجع: النحوي، الخليل، **بلاد شنقيط: المنارة والرباط**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٦، و **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، مرجع سابق.

[١٣] . عالم جليل (ت ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م)، تخرج عليه في اللغة والنحو معظم علماء شنقيط في عصره والعصر الذي يليه، **الوسيط**، مرجع سابق، ص. ٢٧٧ ـ٢٧٩.

[١٤]هو الشيخ سيديا الكبير ولد المختار ولد الهيبه (ت ١٢٨٤هـ)، عالم جليل ومتصوف كبير وشاعر مكثر. ينظر: **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مرجع سابق، ص. ٣٤٠ ـ ٣٤١.

[١٥]) . "الحضرة" في السياق الشنقيطي تعني مستقر الشيخ في حيه المتنقل، ويقابلها في البلاد العربية "زاوية".

نغمة له مميزة"[١٦] على حد وصف ولد الحسن. وكان يعود إلى بلاده أحيانا ثم لا يلبث الحنين إلى زوجه وأولاده أن يغريه بالعودة إلى السنغال[١٧] حيث تركهم. ومع أن تاريخ وفاته غير مضبوط فالغالب أنه توفي بعيد سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م[١٨] وله ديوان شعر مرقون[١٩] ومؤلفات في العقيدة والفقه والحديث[٢٠].

وقد ضم هذا الديوان جل شعره المحفوظ، والذي يدل على أنه كان شاعرا متمكنا من ناصية اللغة وكانت له شاعرية لا تخطئها العين، نحاول استجلاءها في المطلب التالي من هذا البحث.

---

[١٦] . **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، مرجع سابق، ص.١٣٠.

[١٧]) دولة إفريقية مسلمة تقع في غرب أفريقيا، استقلت عن فرنسا سنة ١٩٦٠، عاصمتها داكار، غير أن هذا الاسم كان يطلق في عصر الشاعر على مناطق واسعة من إفريقيا الغربية قبل أن يقسمها الاستعمار الفرنسي إلى دول متعددة.

[١٨]) . لكون صديقه الشاعر محمدي ولد سيدينا (ت شوال ١٢٦٤هـ/أغسطس أو سبتمبر ١٨٤٨م) خاطبه بأبيات وهو يحتضر. راجع: د. أحمد جمال ولد الحسن، **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر: مساهمة في وصف الأساليب**، مرجع سابق، ص.١٣٠.

[١٩] . حققه محمد رضوان الله ولد محمد سالم، المدرسة العليا للتعليم، نواكشوط،١٩٨٣م.

[٢٠]) . Mohamed El Mokhjar Ould Bah, La Litterature juridique et l'evolution du Malikisme en Mauritanie,Tunis,1982.

مميزات شعره:

يتبوّأ ابن أحمد دام مكانة بارزة بين الشعراء الشناقطة وخاصة بين معاصريه من شعراء القرن الثالث عشر الهجري. لذلك كان حضوره لافتا في الأعمال التي تناولت الشعر الشنقيطي في هذا القرن وفي القرون التي تلته [٢١]. فهو إذن ليس نكرة في الشعر الشنقيطي، وإن لم يحظ . كما ألمحنا إلى ذلك سابقا . بدراسات وبحوث كثيرة خاصة به.

إن المتتبع لإنتاجه الشعري ليعجب من حضور أغلب الأغراض المعروفة في عصره من مدح ومديح وغزل وفخر ورثاء ومساجلات وحنين إلى الأهل والوطن وغيرها

---

[٢١] . فقد أورد جل شعره المحفوظ محمد الأمين الشنقيطي في كتابه "**الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**" المشار إليه سابقا. كما كان على رأس الشعراء الذين تناولهم د. أحمد جمال ولد الحسن في كتابه سابق الذكر: "**الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، مساهمة في وصف الأساليب**. كما تطرق إلى شعره د. محمد المختار ولد ابّاه في كتابه "**الشعر والشعراء في موريتانيا**"، طبعة دار الأمان بالرباط، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. وتناوله كل من الدكتور عبد الله ولد محمد سالم ولد السيد في كتابه "**الشعر الشنقيطي في القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجريين: دراسة في المرجع والبنية والقراءة**"، مطبعة المنار، نواكشوط، ٢٠٠٨م. ...إلى غير هؤلاء من الباحثين.

في ديوانه[٢٢]. والملاحظ أنه في كل هذه الأغراض مجيد حتى ليخيل إلى المرء وهو يقرأ مديحياته مثلا أنه على المديح أقدر وأكثر تمرسا منه على ما سواه. وقل الشيء نفسه في المدح والغزل والحنين والمساجلات وبقية الأغراض، وهو أمر لا يتاح لكل الشعراء، إذ يكون بعضهم في أحيان كثيرة أكثر تمكنا في غرض معين منه في الأغراض الأخرى. ويدل ذلك على أن صاحبنا كان بالفعل "شاعرا"[٢٣] بالمقاييس النقدية التقليدية[٢٤] التي كانت مسلطة على الشعر والشعراء في عصره الذي كان "عصر كبار الشعراء"[٢٥]. ويتميز شعره بالجزالة وقوة السبك وسلاسة اللغة هذا على مستوى الشكل، كما يتميز بصدق العاطفة وحرارتها، وكذلك بتعدد الأغراض التي تناولها. ولعل ميزته الأبرز هو التأثر بالشعر الجاهلي على مستوى الشكل وبشعر صدر الإسلام على مستوى المضامين. ولذلك جاءت قصائده مضارعة لشعراء هذين العصرين على وجه التحديد، ولكنه إلى ذلك بقي محافظا على شخصيته المميزة، فلم يجترّ إنتاج متقدِّميه اجترارا بل مهره بطابع ذاته الشاعرة. ويمكن القول إن لشعر ابن أحمد دام ميزات بارزة، نلمح إلى بعضها إلماحا لإعطاء صورة مقتضبة عن إمكانياته وقدراته الشعرية، حتى يكون ذلك منطلقا لما نحن بصدده من الحديث دلالات المكان في شعره، ومن تلك السمات:

---

(٢٢) . راجع: "**الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**" و"**الشعر والشعراء في موريتانيا**" و"**الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري**" والديوان بتحقيق محمد رضوان الله لد محمد سالم، وكلها مراجع مذكورة سابقا.

(٢٣) . لم يكن من السهل الوصول إلى هذه المرتبة في بلاد شنقيط وخاصة في القرن الثالث عشر الهجري الذي استوى فيه شعر تلك البلاد على سوقه، وغدت فيه المقاييس النقدية صارمة أشد ما تكون الصرامة.

(٢٤) . لا يتصف بهذه الصفة في بلاد شنقيط عادة إلا المتمكن في نسج الشعر الجيد في كل الأغراض، المثقف ثقافة لغوية وأدبية وعلمية جيدة. لذلك ضاع كثير من الشعر الشنقيطي الذي لم يكن مستوفيا لهذه الشروط التي كان لها من النقاد سدنة لا يتهاونون في تطبيقها.

(٢٥) . **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، مرجع سابق، ص.٢٥.

حضور الشخصية:

عكس شعر ابن أحمد دام شخصيته القوية واستقلاليته وعدم تعويله على غيره، وهو ما تجلى في بعض نصوصه، ومن ذلك قوله من قصيدة يعاتب فيها قومه بعد أن وعدوه برفيق يصحبه في سفره إلى بلاد السنغال حيث زوجه وأولاده، فلم يفوا، فقرر أن يسافر وحده وأن لا يقبل منهم أي مساعدة:

تجلدت للتوديع والقلب جازع
وأخفيت ما كادت تبين المدامع
ترقرق دمع لو أطعت غروبه
ذرفن كأجرى ما تفيض الدوافع
فيا عجبا أخشى الفراق وطالما
حرصت عليه مكرها أنا طائع[٢٦]

وتجلِّي هذه الأبيات قوة شخصية ابن أحمد دام واعتداده بنفسه وتجلده وصبره، واستقلال قراره، رغم حاجته الماسة إلى رفيق يعينه على أهوال الطريق وبعد الشقة. ويبلغ الاعتداد بالنفس ذروته حين يقول من نفس القصيدة:ولست لأمر إن تعاصى بتارك
ولست لمرء في أموري أطاوع[٢٧]

فهو لا يعول على غيره، ولا يتكل على سواه، وإنما يتخذ من التصميم وقوة الإرادة الركن الذي إليه يأوي والعصا التي عليها يتوكأ. ويكرر هذا المعنى في قصيدته المديحية التي مطلعها:

تألق لماع الوميض لموح
بذي السرح يخفى تارة ويلوح[٢٨]

حيث يقول:

فدع ما ترى وافزع إلى الصبر إنما
أخو الصبر في عقبى الأمور نجوح
وإياك أن تلفى هيوبا يصده
عن الأمر حينا أن يمر سنيح[٢٩]

فيعلي من قيمة الصبر مستلهما في ذلك ما ورد في غير موضع من القرآن الكريم[٣٠] من الحث على الصبر ومن الأجر الجزيل الذي ينتظر الصابرين.

وكثيرة هي النماذج التي يمكن إيرادها للدلالة على قوة شخصيته وحضور هذه الشخصية في شعره، لكننا نقتصر على هذا النموذج تجنبا للطول.

صدق العاطفة:

أما السمة الثانية التي نود الوقوف عندها قليلا فهي صدق عاطفة ابن أحمد دام في تعبيره عن مواقفه ومشاعره جميعا. والأمثلة على ذلك كثيرة لكننا نقتصر منها على النموذجين التاليين، أحدهما في الحنين إلى

---

(٢٦) . **الوسيط**، مرجع سابق، ص. ٢٩٤.

(٢٧) ـ نفس المرجع، ص.٢٩٦.

(٢٨) ـ نفسه، نفس الصفحة.

(٢٩) ـ نفسه، ص.٢٩٧.

(٣٠) ـ مثل قوله تعالى: ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾، الزمر، الآية ١٠. وقوله: ﴿**واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون**﴾،النحل، الآية ١٢٦.

الوطن وفيه يقول:

أفي الحق أني كلما مر قافـل
طغت زفرات في الحشا ونشيج
ووارى غروب الدمع إنسان مقلتي
فيا لمعين سال وهو مشيج[٣١]

أما الثاني فهو في المديح وهو قوله بعد أن ذكر مرابع صباه قبل التخلص إلى مدح النبي عليه الصلاة والسلام:

معاهد يرتاح الفؤاد لذكرها
وأهتف شوقا باسمها وأبوح
وتعتادني منها طوارق لوعة
كما انقض روّاع الرعيل جروح[٣٢]

ويعبر هذان النموذجان عن صدق عاطفة الرجل سواء وهو يذكر موطن أهله ومرابع صباه، أو وهو يحن إلى تلك المواطن والربوع. ولعل بعض العبارات تنهض دليلا على ذلك من قبيل: زفرات، الحشا، نشيج، يرتاح، أهتف، أبوح، وهي كلمات يمتحها من سويداء فؤاده وتلك آية صدق العاطفة.

<u>الجزالة وقوة السبك</u>:

امتاز شعر ابن أحمد دام بالجزالة وقوة السبك وهي سمة لكل ما وصل إلينا من شعره، ويمكن الاستئناس بالنموذجين التاليين الذين نرى أنهما يمثلان جزالة شعره خير تمثيل، أما أحدهما فهو في الغزل، يقول:

قد كنت يا ذي إلى قلبي محببـة
وربما صدقت حال امرئ خبره
طاشت عن القلب رميات الحسان سوى
سهميك قد قرعا أعشاره العشره[٣٣]

فأنت ترى المعاني الجميلة المكتنزة في هذه العبارات الرقيقة العذبة المنسابة، وتلك هي الجزالة في أبسط تعريفاتها. أما النموذج الثاني فهو في المدح من قصيدة يمدح بها الشيخ سيديا[٣٤]:

حارت أناس بجدوى حاتم ولقد
نرى سخاء كمال الدين قد غلبه
أغنى العماعم من راجيه سيب ندى
من لا يمن على العافين ما وهبه[٣٥]

ونكتفي بهذه النماذج التي نرى أنها تمثل شعر الرجل إلى حد بعيد، سواء في حضور شخصيته أو في صدق عاطفته أو في جزالته، لننتقل إلى المطلب الثاني من هذا المبحث.

---

[٣١] ـ نفسه، ص. ٢٩٠.

[٣٢] ـ نفسه، ص. ٢٩٦.

[٣٣] ـ سبق التعريف به في الهامش (١٤).

[٣٤]) ـ نفسه، ص.٢٩٢.

[٣٥] ـ نفس المرجع، نفس الصفحة.

المطلب الثاني: الدلالات النفسية والاجتماعية للمكان في شعر ابن أحمد دام:

كان المكان وما زال أحد أهم أركان هوية الشاعر النفسية والاجتماعية، وإحدى المقومات الثقافية الأساسية لكل تجمع إنساني. ومن هنا كان الشعراء يستدعون المكان ليعكسوا من خلاله انفعالاتهم النفسية وهمومهم الاجتماعية، ولم يكن ابن أحمد دام إلا واحدا من هؤلاء حيث عكس شعره تلك الأبعاد فغدا لوحة ترتسم عليها ظلال وجدانه وحياة مجتمعه.

أولا: الدلالات النفسية:

كان ابن أحمد دام شاعرا مرهف الحس شفاف الروح، لذلك حمَّل شعره أشواقه وحنينه، حبه وتولهه كما حمَّله بغضه وتبرمه، نفوره وكرهه للأمكنة الكثيرة التي عاش فيها، سواء كانت في وطنه أم في مغتربه. ولأن شاعرنا عاش حياة مضطربة قوامها التنقل الدائب من مكان إلى مكان بين بلاده موريتانيا وبلاد السنغال التي مارس فيها التجارة واستقر بها برهة من الزمن، فقد اصطبغ شعره بتلك التقلبات وذلك الاضطراب، فانطلق يعبر عن مشاعره المتناقضة تبعا للحالة النفسية التي يعيشها، متخذا من المكان أداته التعبيرية

على أن هذا التمزق الذي عاشه بين وطنه وبلاد الغربة ليس وحده مردَّ تلك العواطف الجياشة والعواطف المتدفقة، ففي شعره ما ينهض دليلا على أنه استصحب شفافية الروح وحساسية النفس في كل ما خلفه لنا من تراث شعري كان المكان فيه لحمة الإبداع وسداه.

ويمكن أن نلمس تلك الدلالات النفسية للمكان في عدد من قصائده، بيد أننا سنكتفي باستعراض نماذج نراها دالة على ما نحن بصدده، فمن تجليات ذلك ما محضه من حب لوطنه وملاعب صباه وشبابه، تجلى في حنينه الذي لا ينقطع إلى تلك الربوع. وعلى ذلك يمكن الحديث عن بعض تلك التجليات:

التعلق بالمكان:

عبر ابن أحمد دام عن تعلقه بالمكان بصيغ مختلفة وبطرق متعددة، فإن كان المكان وطنا طال الغياب عنه واشتد الحنين إليه، جاء التعبير عن التعلق به صادقا ومباشرا مستندا إلى عبارات الحرقة والتمني والشوق، من قبيل قوله:

ألا ليت شعري هل إلى معهد النوى
خلاص من ايدي النأي والجولان
وهل لي بجنبي تغرريت إلى الصفا
إلى الأجرع الغربي فالجـرذان
إلى جنبتي ذي قسطل متنـزه
فإني إليها دائم الهيمـان
وتبدو لعيني بلدة وأحبـة
عداني قديما عنهما الملـوان[٣٦]

فقد رسم في هذه الأبيات صور تعلقه

---

[٣٦] - **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مرجع سابق، ص. ٢٢٠.

بهذه الأمكنة عبر كلمات مثل: ليت، خلاص، هل لي....إلخ، وكذلك من خلال تعداد أسماء الأماكن فلإلحاح على مدى الحنين والشوق: تَغْرَرَيْتَ، الصفا، الأجرع، الجرذان، ذي قسطل. فابن أحمد دام هنا يعدد أماكن يعرفها حق المعرفة، ويعبر عن شوقه إليها وتعلقه بها. فكان حديثه عنها ينطلق من خلفية واقعية، إذ كان يعود إلى تلك الربوع من حين لآخر كلما أتيح له ذلك.

وفي نموذج آخر يستمطر ابن أحمد دام السماء لأماكن أخرى أبعد، أماكن لا هي من مواطنه وإن كان يغشاها أحيانا زائرا لأهلها أو مريدا لمشايخها:

تألق لماع الوميض لموح
بذي السرح يخفى تارة ويلـوح
جلا عن روايا بتن يمأدن مثلما
ينوء مدانى الساعدين طليـح
سقى دمنا حول اللوي وأربعا
على الغار ثجاج الفواق سحوح
وجادت على أطلال زار مربـة
بها كل غراء الجبين دلـوح
معاهد يرتاح الفؤاد لذكرهـا
وأهتف شوقا باسمها وأبـوح
وتعتادني منها طوارق لوعـة
كما انقض رواع الرعيل جروح[٣٧]

إن نفسه لتذوب شوقا، وإن فؤاده ليهتز طربا لمجرد ذكر هذه الأماكن، وكأن ذلك الذوبان والاهتزاز لا يكفيان للتعبير عن حبه لتلك الربوع وتعلق نفسه بها، فيبدأ تعدادها واحدا واحدا وكأنه يقول للقارئ: هذه آية حبي لها وشوقي إليها: أن أذكرها بأسمائها واحدا تلو الآخر ليُعلَم أن مشاعري نحوها صادقة لا شية فيها. ويبلغ تعلقه بتلك الأماكن ذروته حين يقول: وأهتف شوقا باسمها وأبوح....وعلى الرغم من أن هذه الأماكن جميعا تقع في منطقة واحدة بإمكانه الاستغناء بذكرها عن ذكر كل مكان على حدة، فإنه يأبى إلا أن يذكرها كلها، إذ ربما كان في ذلك راحة لنفسه وهو يمرر كل اسم على مسمعيه فيستحضر الذكريات المرتبطة بكل مكان، كل ذلك تعبيرا عن تعلقه بها وشوقه إليها.

هذا وبوسعنا استطراد نماذج أخرى من شعر ابن أحمد دام يكتنز فيها المكان دلالات نفسية متنوعة، لكننا أحجمنا عن ذلك خشية الإطالة، ولأننا نعتقد أن في النماذج السابقة ما يقيم أود البحث فيما يتعلق بهذا الجانب. لذلك فإننا مولُّون وجهنا ـ في الأسطر التالية ـ شطر الدلالات الاجتماعية للمكان عند شاعرنا، غير ناسين أن العلاقة بين هذين النوعين من الدلالات قوية متشابكة، وإنما نفرق بينهما تفريقا منهجيا لا غير. ولهذا السبب ترانا نأتي بالنص الواحد في سياق الدلات النفسية والاجتماعية معا لشدة التداخل بين البعدين مما جعل الشاعر يطرقهما في القصيدة الواحدة، بل في البيت الواحد.

---

[٣٧] ـ نفسه، ص.٢٩٦.

ثانيا: الدلالات الاجتماعية

قيل قديما ـ وبحق ـ إن الإنسان ابن بيئته ونتاج مجتمعه، فهو لذلك جزء من الجماعة يؤثر فيها ويتأثر بها، ولهذا فلا غرو من استحضار ابن أحمد دام للمكان باعتباره أساس كل اجتماع، فطفق يحمِّل المكان من الدلالات الاجتماعية ما يشي بمركزية المكان في شعر الرجل. فالمكان عنده موئل التقلبات الاجتماعية، تنسج فيه العلاقات وتعالج فيه المشكلات ويحتفل فيه بالنجاحات وتناقش فيه الإخفاقات.

كان المجتمع الذي نشأ فيه ابن أحمد دام مجتمعا بدويا[٣٨] يعلي من قيمة العلم، يتعلم فيه الأطفال منذ نعومة أظافرهم كتاب الله ولغة العرب قبل أن يدرسوا الفقه والمتمات[٣٩]. ولهذا نشأ الفتى في مجتمع عربي يتعاطى اللغة والأدب وخاصة الشعر الذي كان غذاءه الروحي، فهو عماد جلسات السمر الليلية، وموضوع الندوات الثقافية والأدبية، ولهذا لم تكن صورة المكان ودلالاته لتنفصل عن هذه الحقيقة الاجتماعية الماثلة. على أن المكان في دلالاته الاجتماعية يتجاوز تلك الظلال الأدبية والفنية إلى ما تعج به الحياة الاجتماعية ذاتها من صنوف المشاغل والمشاكل، وما يجري فيها من أحداث وتقلبات، فكان للمكان بما له من دلالات، حضوره في تلك الأبعاد جميعا. وبهذا المعنى يمكن الحديث عن مكان ثقافي فيه تتعاطى الثقافة بمختلف أوجهها وخاصة الأدبي منها، ومكان اجتماعي فيه يتم التفاعل مع حركة المجتمع وصيرورته ومواضعاته.

المكان الثقافي:

لعل مما يلفت الانتباه هنا هذا الاغتراب الثقافي شديد الوطأة على شاعرنا وهو يعيش بين أعاجم لا يكادون يبينون، فيغدو المكان لديه مكانين: مكان بعيد يرمز إلى الثقافة والأدب والعلم، يتناشد أهله الشعر ويتذوقونه ويقوّمونه، وهو وطنه الذي أشار إليه في البيت الأول من القطعة التالية بالأرض، ومكان يرمز إلى الجهل المطبق والعجمة المستحكمة وهو مهاجَرُه الذي أشار إليه في البيت الثالث بالسدم[٤٠] والجَبَا[٤١].

---

[٣٨] ـ شكلت بوادي موريتانيا (بلاد شنقيط) استثناء من البوادي العربية حيث ازدهر فيها العلم ومؤسساته المعروفة محليا باسم "المحاظر"، هذا في الوقت الذي كان العلم في البلاد العربية سمة للمدن. يمكن الرجوع إلى:

. الخليل النحوي، **بلاد شنقيط ـ المنارة والرباط**، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٦.

. **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، مرجع مذكور في ثنايا هذا البحث.

[٣٩] ـ كالمنطق والفلسفة والفلك والرياضيات.

[٤٠] ـ الماء الآسن، انظر: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور

ولشدة هذه الغربة الثقافية نراه يفصّل جوانب العجمة لدى سكان مغتَربه، فيأتي بالتشبيهات الساخرة، لدرجة أنه شبههم بالقطا، هذا في حين يُجْمِل عند ذكر أهله والأرض التي نشأ بها، فلا يزيد على وصف أهله بالعز والكرم، وهي معاني ودلالات ترتبط بالشعر أيّما ارتباط.

نَشَأْتُ بِأَرْضٍ لاَ أَوَدُّ بِأَهْلِهَـا
أَعَزَّ أُنَاسٍ فِي الْبِلاَدِ وَأَكْرَمَـا
وَهَا أَنَا أَسْعَى بَيْنَ نَاسٍ تَخَـالنِي
لَدَيْهِمْ إِذَا خَاضُوا الْأَحَادِيثَ أَبْكَمَا
وَتَحْسَبُهُمْ وُرْقَ الْقَطَا قَذَفَتْ بِهِ
عَلَى سَدَمٍ قَفْرِ الْجَبَا لَوْعَةُ الظَّمَـا
يَقَعْنَ فَمَا يَنْقَعْنَ إِلاَّ بِلُجَّـةٍ
غَلِيلاً فَمَا تَدْرِي بَكَى أَمْ تَرَنَّمَا؟[٤٢]

ولكنَّ ما أجمَلهُ في هذه الأبيات عن بلاده وأهله، فصّله في أبيات أخرى يتوق فيها إلى العودة إلى وطنه وقومه الذين يتنفسون الشعر والأدب، عساهم ينسونه تلك البلاد ورطانات أهلها. إن شوقه لممضّ وإن حنينه لمبرّح لتلك الربوع التي يتعاطى أهلها الأدب الرفيع والشعر الرقيق بعد إخضاعه لمقاييس نقدية صارمة لا تتساهل مع رديء الأدب ولا ركيك الشعر. هناك وهناك فقط نفقت بضاعة الشعراء وراجت إبداعات الأدباء. فالمكان إذن مضمخ بالثقافة والأدب يتعاطاهما مجتمع بدوي بسيط يملأ أوقات فراغه ـ وما أكثرها ـ بالشعر إنشاء وإنشادا، وبالثقافة عموما إنتاجا واستهلاكا:

وهل أراني في قوم إذا سمعوا
من صائب القول مسرودا ومنتِثرا
تمايلوا ميدَ صرعى قرقفٍ ورموا
عن قوس أعينهم من قاله شـزرا
عُجبا بذاك ولا يغني تمايلهم
عن أنَّةٍ كاهتياج العاشق ادَّكرا
هناك راج بليغ القول وانتُبِذت
زُيوفه غير معني بها هـذرا[٤٣]

المكان الاجتماعي:

نقصد بالمكان الاجتماعي دلالات المكان في بعدها الاجتماعي، أي في علاقة المكان بساكنيه. ولأن الحياة الاجتماعية حبلى بالتطورات والتقلبات، وباعتبار الشاعر العربي لسان حال مجتمعه، كان من الطبيعي أن يتفاعل ابن أحمد دام مع مجتمعه سلبا وإيجابا، لذلك تنوعت دلالات المكان في ظلاله الاجتماعية في شعره. وقد تراوحت تلك الدلالات بين المقابلة بين

الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، ص. ٢٤٧.

(٤١) ـ الماء المجموع في الحوض، أو هو ما حول الحوض والبئر من التراب، **معجم المعاني**، الطبعة الألكترونية، http://www.almaany.com

(٤٢) ـ **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، مرجع سابق، ص.٣٥٦.

(٤٣) ـ نفسه، ص.٣٥٦.

الشرق والغرب باعتبارهما مكانين متناقضين في رمزيتهما بالنسبة للشاعر:

أأتيحت لغرب الأرض مني زيارة

وفي الشرق أرض في المزار تنازع[٤٤]

فالغرب هنا هو موطن الشاعر حيث أهله وأحباؤه وأقرانه وهو مكان محبب لذاته ولما يرتبط به من ذكريات عاشها مع خلانه، بينما الشرق هو بلاد الغربة حيث زوجه وأبناؤه وهو مكان مكروه لذاته محبب لوجود أبنائه فيه. فزيارة الغرب أي الوطن هي زيارة للمكان ولمن في المكان، أما التوق إلى زيارة الشرق أي المهاجر، فهو توق لزيارة من في المكان وليس توقا إلى زيارة المكان نفسه.

وقد ورد هذا البيت ضمن قصيدة طويلة يعاتب فيها قومه الذين أرادوا تثبيطه عن السفر إلى إفريقيا إشفاقا عليه، فوعدوه بالزاد والرفيق. وبعدما تبين له مماطلتهم أزمع السفر ورفض أن يأخذ منهم أي مساعدة، ثم أنشدهم تلك القصيدة التي يذكر فيها أماكن كثيرة محملة بالدلالات الاجتماعية المتنوعة.

بيد أن دلالات الأماكن التي يذكرها الشاعر في هذه القصيدة ملأى بالمرارة والتحدي: المرارة التي يشعر بها جراء خذلان قومه وتحدي أهوال الطريق وصعابها. ولهذا كانت الأماكن المذكورة في النص تحيل إلى الخوف والوحشة، فهي مفازات، بلاد شواسع، بلاقع، عراض الفيافي، الجبال الفوارع، البيد، الوهد، الأجارع، المهمه. فكأن ابن أحمد دام عمد إلى حشر هذه الأماكن الوحشة والمخيفة حشدا، ليذكر قومه بأنه قادر على تحدي كل تلك الصعاب سبيلا إلى زيارة أهله في المهاجَر.

ويتضح مدى المرارة التي يشعر بها في هذا البيت الذي يكاد يشي بما يعتمل في نفس الشاعر من عتب على قومه الذين لم يقدروا عاطفته نحو أهله في بلاد الغربة حق قدرها، لذلك أولاهما الصماء من أذنيه:

أأصغي وأفراخي قد اعرض دونهم

عراض الفيافي والجبال الفوارع[٤٥]

ولا يكاد هذا العتب وتلك المرارة يخفيان استعطافا مبطّنا عبرت عنه كلمة "أفراخي" التي تدل على الهشاشة والضعف في مقابل كلمة قوية موحشة من قبيل: الجبال الفوارع. ولكنه لا يلبث أن يأوي إلى ركن من الإقدام يخرجه من لحظة الضعف الآنية، ويدفعه إلى اقتحام الصعاب والمخاطر، يقول:

فإني لمقدام على كل مهمه

يتيه به لو كان يغشاه رافع[٤٦]

ويحسن بنا أن لا ننهي هذا الحديث المقتضب عن المكان الاجتماعي قبل التعرض لجانب آخر من الدلالات الاجتماعية للمكان لدى شاعرنا، ألا وهو

---

[٤٤]) ـ **الوسيط**، مرجع سابق، ص.٢٩٤.

[٤٥]) ـ نفسه، نفس الصفحة.

[٤٦] ـ نفسه، ٢٩٥. ورافع صحابي كان من أشد الناس هداية.

تفاعله مع ما كان منتشرا في عصره من التصوف، إذ كان هو نفسه مريدا للشيخ سيديا[٤٧] الذي كانت حضرته من أشهر الحضرات الصوفية في بلاد شنقيط.

وتمتاز الدلالات الاجتماعية للمكان هنا بطابعها الديني الصوفي الذي يبالغ في إطراء الممدوح، وهو أمر مفهوم من شاعر مريد، يقول بعد مقدمة طويلة:

ناجيت فكري وقد أمعنت من نظري
ثم استمر بي الرأي الذي اكتسبـه
أن يممت شرف الدين الكمال بنـا
علياء تعتسف الآكام والهضبـه
حتى وضعت عصا سيري بباب فتى
يؤوي الطريد ويولي الراغب الرغبة[٤٨]

تلك بعض أوجه الدلات النفسية والاجتماعية للمكان في شعر سيدي عبد الله بن أحمد دام، آثرنا أن تكون شاملة في غير إطالة، آخذة من كل دلالة بطرف. وكان تركيزنا على الدلالات المباشرة للمكان لأنا في المبحث الثاني متناولون هذه الدلالات لكن من زاوية القيم التي تحيل إليها، سواء كانت قيما سلبية أم إيجابية.

المبحث الثاني: الدلالات القيمية للمكان في شعر ابن أحمد دام

نَنْكَبُّ في هذا المبحث على القيم التي عكستها دلالات المكان عند ابن أحمد دام، فنتناول في اللمطلب الأول ما نسميه بالقيم الإيجابية وفي الثاني ما ندعوه القيم السلبية التي يدل عليها المكان ضمن دلالاته المتعددة. ولنبادر إلى القول إن هذه القيم ليست مرتبطة بالمكان أصلا وإنما يضفيها عليه وجدان الشاعر عندما يعبر عن موقفه سلبا أو إيجابا، تعبيرا عن حالة نفسية معينة.

المطلب الأول: المكان رمزا للقيم الإيجابية

إن ارتباط الشعراء بالمكان قديم قدم المكان وقدم الإنسان أيضا، وعادة ما يعكس الشاعر ذلك الارتباط شعرا معبرا عن خلجات نفسه وبوح فؤاده فيضفي على المكان من الصفات ويحلّيه من القيم بما يناسب المقام ويتّسق مع شعوره إن سلبا فسلبا وإن إيجابا فإيجابا. وفي هذا المطلب نتعرض لما نسميه القيم الإيجابية المرتبطة بالمكان كما عكسها شعر ابن أحمد دام، وقد رتبنا هذه القيم ترتيبا اعتمدنا فيه على ورود القيمة في نصوص الشاعر كثرة وقلة، وهو ترتيب منهجي لا غير، وإلا فلكل واحدة من القيم المدروسة قيمة ذاتية غير منقوصة.

---

[٤٧] ـ سبق التعريف به في الهامش ١٤.

[٤٨] ـ **الوسيط**، مرجع سابق، ص.٢٩٢.

أولا: الحنين[٤٩]

اشتهر ابن أحمد دام أكثر ما اشتهر بالحنين إلى حتى صار له "نغمة مميزة" كما يقول ابن الحسن.[٥٠] وقد ذكرنا أنه طوف في غرب إفريقيا ومارس فيها التجارة وتزوج وأنجب، هذا في وقت كان أهله في بلاد شنقيط أي موريتانيا الحالية، لذلك عاش ممزقا بين مكانين كبيرين هما موطنه ومغتَربه تتفرع عنهما أمكنة أخرى قدر له أن يعرفها في فترة من فترات حياته، فكان له بها ارتباط من نوع ما جعله يحن إليها ويعبر عن ذلك شعرا يفيض رقة وصدق عاطفة.

ومن أشهر نصوص الحنين لديه هذه القصيدة التي كتبها وهو في بلاد الغربة معبرا عن حنينه وشوقه إلى مسقط رأسه ومرابع صباه. ولنا مع هذه القصيدة ثلاث وقفات نضمنها ثلاث ملاحظات: أولاها أن الشاعر لم يقتصر على ذكر المكان الأساسي الذي ولد فيه وترعرع، وإنما ذكر عدة أماكن مجاورة له، فكأن نار الحنين والشوق المتقدة في فؤاده لا يطفئها أو لا يخفف من لهيبها على الأصح، إلا ذكر ما تيسر من أمكنة ألفها في مرحلة ما من حياته. ويبدو أن تكثيفه هذا لمعاني الشوق والحنين لا يستوي إلا باستدعاء أكبر عدد ممكن من الأمكنة المألوفة والمحبوبة:

ألا ليت شعري هل إلى معهد النوى
خلاص من ايدي النأي والجولان
وهل لي بجنبي تغرريت إلى الصفا
إلى الأجرع الغربي فالجرذان
إلى جنبتي ذي قسطل متنزه
فإني إليها دائم الهيمان
وتبدو لعيني بلدة وأحبة
عداني قديما عنهما الملوان[٥١]

أما الملاحظة الثانية التي يمكن التعرض لها فهي أن تصوير الشاعر لحنينه إلى موطنه لا يكتمل إلا بذكر الأماكن التي يكرهها وينفُر منها والموجودة في بلاد الغربة، فكأن المقارنة الضمنية بين المكانين حاضرة في ذهن الشاعر بشكل بارز عكسه هذا النص بجلاء:

فيرأب ما أثأته أيام سالم
وأيامنا في ساحة السُّنُغَانِ
وأخرى أقمنا في قرى جُلُفَ التي
أقمنا بها في ضيعة وهوان
فمن منظر تقذى به ورطانة
تصمك أخزى منظر ولسان
بلاد رمتنا بينها لا محبب
إلى العين مرآها يد الحدثان[٥٢]

---

[٤٩] ـ للتوسع يمكن الرجوع إلى د. الشيخ أحمد المنى، **الحنين في الشعر الشنقيطي: ابن أحمد دام نموذجا**، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، العدد ٤، المجلد٩، يوليو ٢٠١٦، ص.١١٥٣.

[٥٠] ـ **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، مرجع سابق، ص.١٣٠.

[٥١] ـ **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مرجع سابق، ص. ٢٢٠.

على أننا عائدون ـ بشيئ من التفصيل ـ إلى هذا التبرم ببلاد الغربة وذكر مساوئها عندما حديثنا القيم السلبية في المطلب الثاني من هذا المبحث بحول الله وقوته.

وأما الملاحظة الثالثة فهي أن تقلب الشاعر في الحياة في هذه الأمكنة المتباينة صورتها نفسيا والمتباعدة أعلامها جغرافيا، أسلمته إلى أن يستخلص من تجربته في التنقل الدائب بينها حكمة بالغة لعله أراد الركون إليها للتخفيف من معاناته:

ومن صحب الأيام أنأين جاره

وأدنت له من ليس بالمتداني[٥٣]

ولا يخفى ما تحمله هذه القصيدة من شوق مبرح إلى المكان الذي يجد فيه الشاعر الخلاص من ربقة الغربة، لكنه خلاص متمنى لا متحقق وهو ما يعبر عنه الشاعر بقوله: ألا ليت.....وهل لي؟ وهما صيغتان مفعمتان بالتمني والتوق لكنهما مفعمتان كذلك بالشك والخوف. كما أن كلمة "خلاص" تشي بمعاناة الشاعر في غربته، ولا يكون خلاصه من تلك الغربة إلا بالعوة إلى موطنه. وإن حرص الشاعر على تعداد الأمكنة ليدل على شدة تعلقه بها وتوقه إلى العودة إليها أسرع ما تكون العودة. ويبدو لي أن هذه الأماكن وكلها صنهاجية، منها المعرّب: "الصفا"، "الأجرع الغربي"، "الجرذان"، ومنها الباقي على صنهاجيته: "تَغْرَرَيْتَ"، غدت مألوفة ومنسجمة مع غيرها من الكلمات العربية. وربما كانت حرارة عاطفة الشاعر قد صهرتها في بوتقة لغة الضاد، فائتلفت مع باقي الكلمات أيما ائتلاف.

لقد ذكر الشاعر في هذه القصيدة عشرة أماكن على الأقل منها ما صرح باسمه: تَغْرَرَيْتَ، الصفا، الأجرع الغربي، الجرذان، ذو قسطل، سالم، السنغان وهو الاسم القديم لجمهورية السنغال (Senegal)[٥٤]، جلف (Djoloff)[٥٥] وهي منطقة سنغالية. ومن تلك الأماكن التي لم يصرح باسمها وإنما رمز بها إلى بلاده: معهد النوى، بلدة. فهذه أكثر من عشرة أماكن ذكرها في عشرة أبيات، وما هذا الإلحاح على المكان إلا تعبير عن التعلق بتلك الربوع والشوق إليها، وهو شوق وتعلق يزيده تجلية بذكر بعض ديار الغربة وما تثيره في نفسه من مرارة. وبذلك يغدو المكان لدى ابن أحمد دام جزءا أصيلا من البناء الشعري وموضوعا للحنين والشوق، حتى يكاد موضوع الحنين الذي هو الإنسان من أهل وأحبة يتوارى تاركا للمكان تصدر المشهد بل واحتكاره.

---

(٥٢) ـ نفسه، ص.٢٩١.

(٥٣) ـ نفسه، نفس الصفحة.

(٥٤) ـ المقصود جمهورية السنغال الحالية التي تقع في غرب إفريقيا وعاصمتها داكار.

(٥٥) ـ منطقة في شرق السنغال تعتمد على الزراعة والتجارة وتربية الماشية.

ولئن كان الحنين عادة ما يكون إلى ربوع الوطن وساكني تلك الربوع، فمن الملاحظ أن ابن أحمد دام حنّ كثيرا إلى بلاد الغربة التي طالما خلع عليها سيئ النعوت، وما ذلك إلا لوجود أهله وولده فيها، ومن ذلك قوله في الحنين يصف حاله حين عاد إلى بلاده ومكث فيها ثم نازعته نفسه إلى أهله وولده في الغربة:

أمرُّ النوى منأى حبيب إذا دنا
لوتك بمحبوب بلاد شواسع
هما طرفا ميزان شوق كلاهما
تطلقني أهواله وتراجع
أتيحت لغرب الأرض مني زيارة
وفي الشرق أرض في المزار تنازع[٥٦]

إن التمزق الذي يعيشه الشاعر بين مكانين وأهلين (بلاد الوطن وفيها مرابع صباه وأهله وأحباؤه، وبلاد الغربة وفيها أهله وولده)، جعله يصور معاناته تصويرا دقيقا أشد ما تكون الدقة، صادقا أشد ما يكون الصدق:

هما طرفا ميزان شوق كلاهما
تطلقني أهواله وتراجع[٥٧]

تلك صورة من صور الحنين إلى المكان في شعر ابن أحمد دام، وليست الصورة الوحيدة ولكننا نقتصر عليها دلالة على قيمة الحنين إلى المكان كما عكسها شعر الرجل.

ومع أننا استعرضنا في المقاطع السابقة دلالة المكان في الحنين، فإن في المقاطع ذاتها أبعادا ودلالات أخرى يمكن التعرض إلى بعضها في القيم الأخرى. ففي النصوص التي تناولنا بعضها سابقا ونعرّج على بعضها الآخر لاحقا، تتجاور في النص الواحد الأبعاد المختلفة لقيم الحنين والانتماء والنفور والتبرم، بحيث يغدو التفريق بينها ضربا من التمرين.

ثانيا: الانتماء

الانتماء إلى المكان ظاهرة إنسانية قديمة متجددة طالما عبر عنها الإنسان بمختلف وسائط التعبير المعروفة ومن أهمها الشعر. أما تعبير الشعراء العرب عن الانتماء لأوطانهم فحدث ولا حرج، فالمكان هو المستقر وهو الأمن والحماية وهو الذكريات بحلوها ومرها، لذلك فهو مقترن بالفعل الإنساني ليعكس الشاعر عبره خلجات نفسه وخطرات فؤاده وأحاسيس نفسه، أي تعلقه وارتباطه به وبكلمة واحدة انتماءه إليه. وإن شئت فاقرأ قول ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجال إليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتْهُمُ
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا[٥٨]

---

[٥٦] - **الديوان**، مرجع سابق، ص.٥٢.

[٥٧] - نفسه، نفس الصفحة.

[٥٨] - أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل إسماعيل العسكري (المتوفى: ٣٨٢هـ)، المصون في

إذن رأيت الانتماء إلى المكان في أبهى صوره، عبر استذكار الماضي الجميل الذي تختلط فيه صورة المكان بجميل الذكريات فتتقد في القلب نار الحنين المعبر عن الانتماء القوي والتعلق المتين.

وأما شاعرنا فقد برز الانتماء في شعره بروزا لافتا سبق أن ذكرنا بعض أسبابه، ولعل ميزة انتمائه تعدد الصور التي يتجلى فيها. فقد يتجلى في الحنين كما ذكرنا آنفا، كما يتجلى في التغني بالمكان ذاته أو بأهله، بل ربما تجلى في مقارنته ببلاد الغربة التي لا يكاد يتحدث عنها إلا وذكر في مقابل ما يعبر عنه من نفور وضيق تجاهها، وطنَه وما له في نفسه من مكانة وتقدير وتوق إلى الرجوع إلى ربوعه.

أما الانتماء كما عكسه الحنين فقد تناولنا منه جانبا في الأسطر السابقة فنكتفي بذلك، لكن الانتماء للمكان كما تجلى في التغني به والتعلق بكل ذرة من ترابه فربما كان في الأبيات التالية ما فيه منه بُلْغَة:

ألا ليت شعري هل إلى معهد النوى
خلاص من ايدي النأي والجولان
وهل لي بجنبي تغرريت إلى الصفا
إلى الأجرع الغربي فالجرذان
إلى جنبتي ذي قسطل متـنزه
فإني إليها دائم الهيمـان[٥٩]

وغنيّ عن البيان أن في هذه الأبيات ما يشي بقوة انتماء الشاعر إلى وطنه، ألا ترى أنه حشد فيها من أسماء الأماكن وعبارات التعلق ما فيه دليل على ذلك؟ من ذلك مثلا: "معهد النوى"، "تغرريت"، "الصفا"، "الأجرع الغربي"، "الجرذان"، "ذي قسطل" هذا من الأماكن، أما من التعابير فيمكن ذكر: "ألا ليت شعري"، "هل إلى معهد النوى"، "خلاص"، "هل لي"، "دائم الهيمان". فحضور كل هذه الأماكن في ذهن الشاعر، والتعبير عن انتمائه إليها بمثل تلك العبارات المضمخة بالشوق والحنين والأمل في العودة، لهو دليل على الانشغال بهم الوطن والتوق إلى لثم ترابه. ليس هذا فحسب، فكلمة "خلاص" تكان تختصر معاناة الشاعر في مبارحته لوطنه الذي لا يرى للحياة طعما إلا على أديمه، ومن هنا كانت هذه الكلمة حبلى بالدلالات المنفتحة في اتجاهين متناقضين: الخلاص من بلاد الغربة بما تمثله من قيم سلبية، والخلاص بالرجوع إلى الوطن بما يمثله من قيم إيجابية قوامها الحب والطمأنينة والانتماء.

لكن الانتماء لدى ابن أحمد دام يتجاوز المكان لا ليبتعد عنه بل ليبث في جوانبه الحياة من خلال قاطنيه الذين هم الأهل والأحبة، كل ذلك ليزيد صورة المكان وضوحا وجلاء وليغدوَ الانتماءُ اندماجًا كاملا بالمكان والإنسان عبر استحضار ذكريات الماضي المشرق:

الأدب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة حكومة الكويت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٤م، .٣٠٨.

[٥٩]) ـ **الوسيط**، مرجع سابق، ص.٢٩٠.

نَشَأْتُ بِأَرْضٍ لاَ أَوَدُّ بِأَهْلِهَا
أَعَزَّ أُنَاسٍ فِي الْبِلاَدِ وَأَكْرَمَا[٦٠]

ولكن هذا الانتماء إلى المكان والإنسان والذي يأوي إلى ركن متين من الشوق والحنين (أرض، أودّ، أهلها، أعزّ، أكرما)، لا يبلغ مداه ما لم يعقد ابن أحمد دام مقارنة بين أهله بما لديهم من قيم وبين الأعاجم الذين اضطرته ظروفه إلى العيش بين ظهرانيهم، وهنا يتلبّسُ الانتماءَ لديه بعدٌ ثقافيٌّ لا تخطئه العين، ذلك أن المكان يمد جسورا معرفية وحدسية وتخيُّلية تربط بين المكان والمكانة والوجود نفسه. وتعكس الأبيات التالية ضجر الشاعر من عجمة القوم وهو الذي نشأ في أرض يتعاطى أهلها الشعر والأدب، وهي الفكرة التي كثفها بعبارات من قبيل: وُرق القطا، سَدَم، بكى أم ترنمّا:

وَهَا أَنَا أَسْعَى بَيْنَ نَاسٍ تَخَالنِي
لَدَيْهِمْ إِذَا خَاضُوا الْأَحَادِيثَ أَبْكَمَا
وَتَحْسَبُهُمْ وُرْقَ الْقَطَا قَذَفَتْ بِهِ
عَلَى سَدَمٍ قَفْرِ الْجَبَا لَوْعَةُ الظَّمَا
يَقَعْنَ فَمَا يَنْقَعْنَ إِلاَّ بِلُجَّةٍ
غَلِيلاً فَمَا تَدْرِي بَكَى أَمْ تَرَنَّمَا؟[٦١]

وتسلمه تلك الغربة الثقافية إلى التعبير عن الحنين إلى بيئة مغايرة أشد ما تكون المغايرة، بيئة لُحمتها الثقافة العالمة وسُداها الذوق السليم، ديار أهله ومرابع طفولته وشبابه. ولئن كانت الأبيات السابقة تفيض ضيقا وتبرُّما بعجمة القوم، وشعورًا حادًّا بالغربة المادية والثقافية في ديارهم، فإن الأبيات التالية تكاد ترسم صورة مختلفة كل الاختلاف مفصلة كل التفصيل لأهله وديارِه، لوحة كل ما فيها مغاير: الفصاحة، تذوق الشعر والأدب...إلخ وللدلالة على ذلك يمكن استخراج كلمات وعبارات كثيرة من الأبيات مثل: صائب القول، مسرودا، منتثرا، تمايلوا، قرقف، راج بليغ القول، انتبذت زيوفه. ويبدو أن الشاعر انتقى مثل هذه الكلمات والعبارات انتقاء لتنتصب مقابل العبارات والكلمات الواردة في الأبيات أعلاه في تضاد وتناقض صارخ بين البلدين والمجتمعين وهو ما نعتقد أنه وفق إليه إلى حد بعيد:

وَهَلْ أَرَانِيَ فِي قَوْمٍ إِذَا سَمِعُوا
مِنْ صَائِبِ الْقَوْلِ مَسْرُودًا وَمُنْتَثِرَا
تَمَايَلُوا مَيْدَ صَرْعَى قَرْقَفٍ وَرَمَوْا
عَنْ قَوْسِ أَعْيُنِهِمْ مَنْ قَالَهُ شَزَرَا
عُجْبًا بِذَاكَ وَلَا يُغْنِي تَمَايُلُهُمْ
عَنْ أَنَّةٍ كَاهْتِيَاجِ الْعَاشِقِ ادَّكَرَا
هُنَاكَ رَاجَ بَلِيغُ الْقَوْلِ وَانْتَبَذَتْ
زُيُوفُهُ غَيْرَ مَعْنِيٍّ بِهَا هَذَرَا[٦٢]

وتعبر هذه الأبيات عن قويّ الانتماء ومبرّحِ الشوق إلى المكان وأهله والتغني بثقافتهم الواسعة وذوقهم الرفيع، فالانتماء لدى

---

(٦٠) ـ **الشعر الشنقيطي**، مرجع سابق، ص.٢٩٢.

(٦١)) ـ **الديوان**، ص.٦٦.

(٦٢)) ـ **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، مرجع سابق، ص.٣٥٧.

الشاعر لا يقتصر على المكان المجرد وإنما هو انتماء مؤسس ثقافيا وهو ما يعطيه وجاهة أكثر لدى المتلقّي. وربما كان حضور هذا البعد الثقافي والمعرفي في انتماء ابن أحمد دام ميزة له، إذ لم نعثر في مدونة الشعر الموريتاني في عصر الشاعر على مثيل لها.

ولئن كانت النصوص السابقة تعبر عن بعض القيم الإيجابية من قبيل الحنين إلى المكان والانتماء إليه، فهناك في تلك النصوص وفي غيرها من نصوص الشاعر ما يعبر عن قيم سلبية تجاه المكان الذي شكل بالنسبة للشاعر مصدر ضيق ونفور ورمزا للعذاب والقلق والمعاناة، وهو الأمر الذي نتعرض له في الأسطر التالية.

المطلب الثاني: المكان رمزا للقيم السلبية

ذكرنا سابقا كيف أن ظروف الحياة ألقت بشاعرنا في مجاهل إفريقيا تاجرًا وحيث قدر له أن يتزوج وينجب. ورغم كل هذه الروابط التي من المفترض أن تجعله يألف مغتربه ويتأقلم مع المكان الجديد الواقع على بعد مئات الكلومترات من موطنه في موريتانيا، فإن ابن أحمد دام ما انفك يعبر عن تمرده وضيقه ونفوره من تلك البلاد التي ترد في شعره مقترنة بكل القيم السلبية التي عبر عنها الشاعر بهجاء المكان والنفور منه والتوق إلى الخلاص منه. وبين هذه العناصر الثلاثة تتراوح دلالات المكان منظورا إليه نظرة سلبية.

أولا: هجاء المكان

تميز شعر ابن أحمد دام بالمقارنة الحاضرة غالبا بين وطنه وبلاد الغربة مدحا للأول وذما للثانية، ولكن هجاءه للبلاد البعيدة التي ألقت به الأقدار فيها كان معبرا عن معاناة متعددة الأوجه. فعلاوة على النفور من المكان والتبرم به وبسكانه، فقد كان هناك بعد آخر جعل معاناته مضاعفة ألا وهو الغربة الثقافية، بل إننا نزعم أن جل هجائه لتلك البلاد وضيقه ونفوره منها ومن أهلها تأتى من عجمة أهلها الذين افتقد فيهم الشاعر تلك البيئة العالمة التي تتعاطى الأدب والشعر والتي نشأ وتربى فيها، فصب جام غضبه على المكان، ليس بما هو مكان فقط، بل على أهله لأسباب لعل هذا أهمها. وتعبر الأبيات التالية عن ذلك الانشغال:

وَهَا أَنَا أَسْعَى بَيْنَ نَاسٍ تَخَـالُنِي
لَدَيْهِمْ إِذَا خَاضُوا الْأَحَادِيثَ أَبْكَمَـا

وَتَحْسَبُهُمْ وُرْقَ الْقَطَا قَذَفَتْ بِـهِ
عَلَى سَدَمٍ قَفْرِ الْجَبَا لَوْعَةُ الظَّمَا

يَقَعْنَ فَمَا يَنْقَعْنَ إِلاَّ بِلُجَّــةٍ
غَلِيلاً فَمَا تَدْرِي بَكَى أَمْ تَرَنَّمَا؟[٦٣]

ففي هذه الأبيات يرسم الشاعر صورة شديدة الوضوح لحاله ورطانة العجم تحاصره من جميع الجهات، وهو ما عبرت عنه كلمات من قبيل: أبكم، بكى، ترنم. وليس هجاؤه مقتصرا على الناس الذين

---

(٦٣) ـ **الشعر الشنقيطي**، مرجع سابق، ص.٢٩٢.

يعيش بينهم وإنما للمكان الذي يضمهم والذي دفعته الظروف إلى الإقامة فيه فورد هجاؤه تلميحا لا تصريحا. على أن هجاء المكان تصريحا ورد في قصائد عدّة لعل من أبرزها قوله:

فيرأب ما أثأته أيام سالم[٦٤]
وأيامنا في ساحة السُّنُغَـانِ
وأخرى أقمنا في قرى جُلُفَ التي
أقمنا بها في ضيعة وهـوان
فمن منظر تقذى به ورطانـة
تصمك أخزى منظر ولسـان
بلاد رمتنا بينها لا محبـب
إلى العين مرآها يد الحدثـان[٦٥]

في هذه الأبيات يبلغ هجاء المكان أو الأمكنة مداه، فلا يجد لها الشاعر فضيلة ينسبها إليها، وإنما هي رمز للخراب "أثأته" والقبح "تَقْذَى به" والعجمة "رطانة"، "تُصِمُّك". وإن نحن قدّرنا الحالة النفسية للشاعر حق قدرها لأمكننا تفهّم هذه المبالغة في الذم "أخزى"، "لا محبب"...إلخ، ذلك أنه يعيش معاناة متعددة الأوجه: فالغربة الجسدية لا تسلمه إلا إلى غربة نفسية وهذه بدورها إلى غربة ثقافية هي الأشد وطئا كما يتضح من مجمل النصوص المذكورة. فهذه الأماكن على تعددها، لم يعش فيها الشاعر راحة بال وإنما عاش "ضيعة" و"هوانا"، لذلك فإنه يذكِّر بأنه لم يُقِمْ فيها اختيارا وإنما اضطرارا: قال الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي:

ومن يأتي الأمور على اضطرار
فليس كمثل آتيها اختيارا[٦٦]

فالقدر هو الذي ساق الشاعر إلى تلك البلاد وهو ما يعبر عنه بفعل "رَمَتْنَا" الذي هو أبلغ في التعبير عن البغض والنفور والضجر، إذ الشاعر هنا مفعول به لا فاعل، مجبر لا مخير بلغة المتكلمين. ويمضي مكثفا هذا الملمح وكأنه يعتذر للمتلقي عندما يذكر أنه لم يحب تلك البلاد أبدا، ولكن يد القدر هي من قذفته في تلك الربوع.

تلك هي الصورة التي رسمها ابن أحمد دام المناطق التي تنقل بينها والواقعة في جمهورية السنغال الحالية وهي صورة حية نفخ فيها من معاناته ما جعلها تفيض هجاء للمكان وتبرما به ونفورا منه. ولصدق تجربته وصدق معاناته، لا يجد المتلقي بدا من أن يبادله ذلك الشعور تجاه تلك البلاد الغريبة والبعيدة، لكنه الشعر عندما يصدر من القلب تتكشف الحجب بينه وبين قلب المتلقي فيتسلل إليه بلطف وسلاسة.

ويبلغ تبرم ابن أحمدا دام بالمكان ذروته حين يصف رحلته إلى مدينة "بَيْرَ" في إفريقيا، ويبدو أنها الأبعد عن بلاده

---

[٦٤] ـ يقصد منطقة سين سالم Sine Saloum بالسنغال.

[٦٥] ـ الوسيط، مرجع سابق، ص.٢٩٠.

[٦٦] ـ الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا.

موريتاني، فكان كلما أوغل في تلك البلاد وقابل في طريقه العائدين إلى الوطن، شعر بغصة فليته كان مثلهم عائدا إلى الأهل والديار، لكنها مطالب الحياة تدفع المرء إلى خلاف رغبته. وقد صور حالته النفسية وهو على مشارف تلك المدينة التي ضاقت عليه الأرض بما رحبت لمجرد رؤيتها:

أفي الحق أني كلما مر قافـل
طغت زفرات في الحشا ونشيـج
ووارى غروب الدمع إنسان مقلتي
فيا لمعين سال وهو مشيـج
كذاك حسبت الأفق حلقة خاتم
غداة بدت من دير "بَيْرَ" بروج[٦٧]

وإن شئت فتأمل هذه العبارة "حلقة خاتم" فهي محملة بكل معاني الضيق والضجر والتبرم، كما أن فيها من هجاء المكان ما ينفتح في كل اتجاه. إنها رمز للغربة بكل أبعادها الجغرافية والنفسية والاجتماعية والثقافية. ولأن الغربة أصناف وألوان، فإن الأماكن تتفاوت في درجة شعور المرء بالغربية فيها، فكلما كان المكان أبعد عن الوطن الأم كلما كانت وطأة الاغتراب فيه أقوى وأمضّ شأن مدينة "بَيْرَ" المذكورة. ولذلك رأينا ابن أحمد دام يعزف عن تفصيل أوجه الغربة وأبعادها وقسوتها كما هو شأنه في قصائده الأخرى حيث خلع على المكان ـ المغترب أوصافا سلبية كثيرة وفصّل أوجه السوء في كل مكان على حدة، أما هنا فقد أطبقت عليه المرارة والمعاناة فلم يجد في نفسه متسعا لذلك التفصيل فاكتفى بتعبير رائع يفي بالغرض وأكثر ألا وهو "حلقة خاتم" التي تتيح للمتلقي تصور كل العيوب حتى تلك التي لم تخطر للشاعر على بال.

ثانيا: التوق إلى الخلاص من المكان

على الرغم من إقامة شاعرنا في مناطق إفريقية مختلفة ولمدة طويلة، فإنه لم يَنِ يتوق إلى العودة إلى بلاده والخلاص من براثن الغربة المكانية والثقافية التي عانى منها طويلا. فلا تلك الإقامة الطويلة، ولا وجود زوجه وأولاده هناك، استطاعت التخفيف من بغضه لتلك البلاد كمكان للتجارة والاستقرار، ولا لسكانها الذين تواشجت بينه وبينهم الأرحام، فظل تواقا إلى حياة أخرى بين أهله وعشيرته وفي ربوع وطنه. والتوق إلى الخلاص ملمح لازم شاعرنا في أغلب قصائده، فلم يتبرم ببلاد الغربة ويبين عيوبها ومساوئها إلا وهو مستحضر ذلك التوق والشوق إلى بلاده، فمن ذلك قوله:

ألا ليت شعري هل إلى معهد النوى
خلاص من ايدي النأي والجولان
وهل لي بجنبي تغرريت إلى الصفا
إلى الأجرع الغربي فالجرذان
إلى جنبتي ذي قسطل متـنزه
فإني إليها دائم الهيمـان[٦٨]

(٦٧)) ـ **الوسيط**، مرجع سابق، ص.٢٩٠.

(٦٨)) ـ نفسه، ص. ٢٩٠.

فهذه الأبيات مقروءةً في سياقها ليست مجرد حنين إلى الأماكن المذكورة، بل هي ـ علاوة على ما فيها من حنين ـ تعبير عن التوق إلى الخلاص من بلاد الغربة التي عدد الشاعر أماكنها في النص نفسه حيث يقول:

فيرأب ما أثأته أيام سـالم
وأيامنا في ساحة السُّنُغَـانِ
وأخرى أقمنا في قرى جُلُفَ التي
أقمنا بها في ضيعة وهـوان
فمن منظر تقذى به ورطانـة
تصمك أخزى منظر ولسـان
بلاد رمتنا بينها لا محبـب
إلى العين مرآها يد الحدثان[٦٩]

فيقيم هذا التضاد وهذا التناقض بين المكان ـ المغترب بقيمه السلبية وبين المكان ـ الوطن بقيمه الإيجابية، وهي مقارنة لا ينفك ابن أحمد دام يستخدمها حتى أوشكت أن تكون له ميزة. والخلاص لدى الشاعر لا يعني مجرد العودة إلى الوطن، وإنما يعني الاغتسال من أدران الغربة وأوصابها، ألا ترى إلى قوله بعد التعبير عن ألوان الشوق والحنين والتوق إلى الخلاص، يذكر أن الخلاص المؤمل سينسيه كل معاناته وعذاباته التي تجرعها في جميع الأمكنة التي مر بها: "سالم"، "السنغان"، "جُلُفْ". ولفعلي "يرأب" "أثأى" في الأبيات أعلاه عن هذا التضاد والتعارض بين الإصلاح والفساد، بين الطمأنينة والقلق، بين الحب والبغض إلى غيرها من الثنائيات.

بيد أن في صلب ذلك "الرأب" أيضا إصلاح "ثأى" اللغة والأدب، الذي عانى الشاعر وطأته أكثر من غيره على ما يبدو كما تعبر عنه كلمة "رطانة" أحسن تعبير، وعلى ذلك يغدو "الهوان" و"الضياع" ذوي بعد ثقافي علاوة على البعد المادي الواضح. ولا يتأتى تجاوز المحنة ببعديها إلا بالانتقال من "الثأى" أي بلاد الغربة إلى "الرأب" أي بلاد الوطن، وبكلمة واحدة بالخلاص من الأولى إلى الثانية.

إن الإلحاح على هذا البعد الثقافي للغربة وربط الخلاص به لأمر يشي بما كان عليه ابن أحمد دام من علم ومعرفة ومن ذوق أدبي رفيع وروح شفافة، وهو لا يجد في المكان ـ المغترب ما يقيم به أود هذه الروح الشاعرة التي بين جنبيه، ولهذا يغدو مفهوما تبرّمه بالبلاد التي عاش فيها ردحا من الزمن لاختلاف المرجعيات الثقافية والمعرفية. ومن هنا قسوته على أهلها، فتراه ينعتهم بشتى النعوت القدحية مما يدل على مدى شعوره بالاغتراب، وهو ما عبر عنه في الأبيات التالية:

---

[٦٩] ـ نفسه، نفس الصفحة.

وَهَا أَنَا أَسْعَى بَيْنَ نَاسٍ تَخَالنِي
لَدَيْهِمْ إِذَا خَاضُوا الْأَحَادِيثَ أَبْكَمَا
وَتَحْسَبُهُمْ وُرْقَ الْقَطَا قَذَفَتْ بِهِ
عَلَى سَدَمٍ قَفْرِ الْجَبَا لَوْعَةُ الظَّمَا
ـَقَعْنَ فَمَا يَنْقَعْنَ إِلاَّ بِلُجَّةٍ
ـَلِيلاً فَمَا تَدْرِي بَكَى أَمْ تَرَنَّمَا؟[٧٠]

وكأنّ ابن أحمد دام لا يطمئنّ إلى وضوح صورة هؤلاء العجم ما لم يقرنها بالصورة المغايرة لأهله وعشيرته حيث تروج المطارحات الأدبية والعلمية والإعلاء من قيم الفصاحة والذوق الرفيع، فيغدو التوق إلى لقائهم والاستئناس بهم بعد طول وحشة ومعاناة توقا إلى الخلاص من تلك المعاناة وتلك الوحشة. وهذا التوق إلى الخلاص من المكان ـ المغترب إلى المكان ـ الوطن تعبر عنه كلمات من قبيل: هل أراني ـ أنّة ـ اهتياج ـ العاشق ـ هناك ـ راج ـ بليغ القول...إلخ

وَهَلْ أَرَانِيَ فِي قَوْمٍ إِذَا سَمِعُوا
مِنْ صَائِبِ الْقَوْلِ مَسْرُودًا وَمُنْتَثِرَا
تَمَايَلُوا مَيْدَ صَرْعَى قَرْقَفٍ وَرَمَوْا
عَنْ قَوْسِ أَعْيُنِهِمْ مَنْ قَالَهُ شَزَرَا
عُجْبًا بِذَاكَ وَلَا يُغْنِي تَمَايُلُهُمْ
عَنْ أَنَّةٍ كَاهْتِيَاجِ الْعَاشِقِ ادَّكَرَا
هُنَاكَ رَاجَ بَلِيغُ الْقَوْلِ وَانْتَبَذَتْ
زُيُوفُهُ غَيْرَ مَعْنِيٍّ بِهَا هَذَرَا[٧١]

تلك رحلة قصيرة في دلالات المكان في شعر ابن أحمد دام، حاولنا خلالها التعرض لأوجه المكان وظلاله كما عكسها شعر الرجل. ونرى أن هذا البحث وضع صوى على طريق دراسة شعر الرجل عموما، ودلالات المكان فيه على وجه خاص، مما يتيح للباحثين الاطلاع على بعض الأفكار التي من شأنها أن تنير لهم الطريق.

(٧٠)) ـ الشر الشنقيطي، مرجع سابق، ص.٣٥٦.
(٧١) ـ نفسه، ص.٣٥٧.

الخاتمة:

إن ثقافة ابن أحمد دام المركبة وموهبته الشعرية الجامحة، أمور جعلته يحس بالغربة المكانية سواء كانت ثقافية أو اجتماعية بشكل لافت عكسه تأثيث قصائده بالأمكنة لغايات تعبيرية وإبداعية غير خافية. وسواء كان المكان ثقافيا أو اجتماعيا أو رمزا للقيم الإيجابية أم السلبية في دلالاته، فإنه يبقى ركنا ركينا في إنتاجه الشعري وخاصة في النماذج التي تطرق إليها البحث. ولكن المكان عند شاعرنا ليس مكانا فيزيائيا فحسب، بل هو أداة للتعبير عن مشاعره من شوق وحنين وتبرم ونفور، وبذلك يضحي المكان ركنا أصيلا من البناء الشعري لديه.

ولئن كان الرجل توكأ على المكان للتعبير عن معاناته في غربته بأبعادها المختلفة، وكذلك عن أشواقه وحنينه إلى وطنه وتوقه إلى الخلاص من مغتربه، فإنه اتخذ منه أيضا أداة للتعبير، ليس عن غربته الجغرافية والنفسية والاجتماعية، بل عن غربته الثقافية والمعرفية والاجتماعية وهو ملمح طريف لديه.

ولقد كشف هذا البحث عن بعض القضايا المتعلقة بدلالات المكان في شعر سيدي عبد الله بن أحمد دام، لعل أهمها:

. عنايته بالمكان عناية خاصة واستخدامه المكان رمزا للقيم الإيجابية والسلبية معا، وهو ما تجلى في إلحاحه على ذكر الأمكنة وتكرارها في شعره بصفة عامة، وفي النماذج التي عرضنا لها في هذا البحث على وجه الخصوص. فتراه يلح على المكان سواء كان ذلك في سياق الهجاء أو في سياق المدح، فللمكان في الحالين حضور كبير في نصوصه، الأمر الذي نستبعد اعتباطيته.

. أن دلالة المكان لا تتحقق ما لم يقرنها بنقيضها، أي أنه إن رمز بالمكان إلى قيمة سلبية لزم أن يأتي بمكان يرمز بالمقابل إلى قيمة إيجابية بحيث بلغ من حرصه على هذا الأمر أن أصبح لديه قريبا من الهوس. فالمكان ـ المغترَب دائم الحضور في ذهنه بجانب المكان ـ الوطن، ومن ثم تكرر ورودهما مقترنين في شعره، وكأنه لا يثق كامل الثقة في استيعاب المتلقي لدلالة المكان فيسارع إلى تقديم الدلالة المناقضة ربما إيمانا بالقول المعروف: "وبضدها تتميز الأشياء".

. أن دلالة المكان لديه دلالة حدية: فإما أن يكون موضوعا للشوق والحنين والحب وإما أن يكون موضوعا للبغض والنفور والتبرم، فلا وجود لديه للمنزلة بين المنزلتين. ونعتقد أن هذا المنحى متأتّ من شدة معاناته وقسوتها، لذلك صب جام غضبه على المكان ـ المغترَب وغمر المكان ـ الوطن بالحب والشوق والحنين باعتباره موضوع التوق إلى الخلاص ووضع عصا الترحال.

ـ أن الاغتراب الثقافي واللساني بارز في دلالات المكان لديه، حتى أنه لا يكاد يخلو منه نص من النصوص التي تناولناها، وهي ظاهرة نرى أنها تستحق دراسة مستقلة

تستكنه ما لها من أسباب وأبعاد ودلالات.

. أن قدرته على المزج بين الإنسان والمكان لا يضاهيها إلا قدرته على الفصل بينهما لغايات تعبيرية محضة. فمثلا عندما يعبر عن شوقه لأهله في بلاد الغربة فإنك لا تجد ذكرا للمكان ـ المغترب إطلاقا، هذا في الوقت الذي يلح فيه على ذكر المكان ـ الوطن عند التعبير عن الشوق إليه والحنين إلى ربوعه والتوق إلى العودة إليه. ولعل في فصله التام لأهله في الغربة عن أي حيز مكاني، دلالة على مستوى من القصدية، إذ يصعب أن يأتي ذلك عفو الخاطر، خاصة أن الشاعر كأنما "سلخ" أهله في بلاد الغربة سلخا، فلم يأت على ذكر المكان الذي فيه يعيشون وفي نطاقه يتحركون.

وبعد فهذه محاولة لقراءة دلالات المكان لدى شاعر من شعراء موريتانيا قلما حظي شعره بما يستحقه من عناية الباحثين، فلعلها أن تكون صوة على طريق دراسة هذا الشاعر والكشف عن جوانب إبداعية في إنتاجه الثّرّ. ويبقى على الباحثين تعميق هذا الجانب وتلافي ما شاب هذه المحاولة من هنات، حتى يكتمل تصورنا عن منزلة المكان ودلالاته لدى الشاعر سيدي عبد الله بن أحمد دام.

قائمة المراجع:

١ ـ **القرآن الكريم.**

٢ـ علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق وضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣.

٣ـ غاستون باشلار، **جماليات المكان**، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٤.

٤ـ بدر نايف الرشيدي، **صورة المكان في شعر أحمد السقاف**، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١١ ـ٢٠١٢، ٤٢,

٥ ـ ابن الأمين، أحمد، **الوسيط في تراجم أدباء شنقيط**، مكتبة الخانجي في القاهرة ومكتبة منير في موريتانيا، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٦.

٦ ـ أمل محسن العميري، **المكان في الشعر الأندلسي ـ عصر ملوك الطوائف**، دار الانتشار العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢.

٧ ـ امرِؤ القيس بن حجر ابن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (المتوفى: ٥٤٥ م)، **الديوان**، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤م.

٨ ـ علي الغريب محمد الشناوي، **الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي**، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٣.

٩ ـ د. محمد مندور، **النقد المنهجي عند العرب**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤.

١٠ ـ أبو الحجاج، يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي المعروف بالأعلم (المتوفى: ٤٧٦هـ)، **أشعار الشعراء الستة الجاهليين.**

١١ ـ أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني ثم البغدادي الظاهري (المتوفى: ٢٩٧هـ)، **الزهرة**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٧٩.

١٢ ـ عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، **نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار**، دار العباد – بيروت، ١٩٧٩.

١٣ ـ Mohamed El Mokhtar Ould Bah, **La Litterature juridique et l'Evolution du Malikisme en Mauritanie**,**Tunis**,**1982**.

١٤ ـ د. الشيخ أحمد المنى، **الحنين في الشعر الشنقيطي:** ابن أحمد دام نموذجا، مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، العدد ٤، المجلد٩، يوليو ٢٠١٦,

١٥ ـ أحمد جمال ولد الحسن، **الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر**، جمعية الدعوة الإسلامية،

.١٩٩٥

١٦ . عبد الله محمد سالم السيد، **الشعر الشنقيطي في القرنين الثاني عشر والرابع عشر**، . دراسة في المرجع والبنية والقراءة، مطبعة المنار، نواكشوط، ٢٠١٢م.

١٧ ـ الشيخ ولد سيدي عبد الله، ن**قد الشعر الفصيح عند الشناقطة (١٧٠٠ ـ ١٩٦٠م): الموقف والممارسة**، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، ,٢٠١٣

١٨ ـ عبد الله محمد سالم السيد، **المعارضة في الشعر الموريتاني ـ مدخل لدراسة الاحتذاء عند شعراء القرن الثالث عشر الهجري**، ، المطبعة المدرسية بالمعهد التربوي الوطني، ,١٩٩٥

١٩ ـ الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط**، ، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ,١٩٨٧

٢٠ ـ الشيخ أحمد المنى، **الشعر السياسي الموريتاني في القرن العشرين: من المقاومة إلى المعرضة، قراءة في الأساليب والمضامين**، أطروحة دكتوراه، جامعة داكار، ٢٠١٠.